

أدوات فعل الفلسفة

تمهيد.

بعد أن تم التوقف عند نشأة الفلسفة، ومحطات من تاريخها المجيد، لا بد إذن من الوقوف عند عوامل فعل الفلسفـ، فـما الدافع إلى الفلسفـ؟ هل يـنبع فـعل الفلسفـ من التـساؤل أم الدهـشـة أم الشـكـ أم هي مـغـامـرة استـكـشـافية هـدـفـها الـبـحـثـ عنـ الـحـقـيقـةـ وـاـمـتـلاـكـهاـ؟

يعتمـدـ فـعلـ الفلـسـفـ عـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـآـلـيـاتـ هـيـ الدـافـعـ الـأـولـ وـالـأـصـلـ لـذـلـكـ، وـهـيـ الـتـيـ مـكـنـتـ الـفـيـلـسـوـفـ مـنـ إـنـتـاجـ مـعـرـفـةـ فـلـسـفـيـةـ، وـتـضـمـنـ هـذـهـ الـآـلـيـاتـ ثـلـاثـةـ مـسـتـوـيـاتـ هـيـ:

الدهـشـةـ: حـسـبـ شـوـبـنـهـاـوـرـ تـفـتـرـضـ فـيـ الـفـرـدـ درـجـةـ أـعـلـىـ مـنـ الـعـقـلـ، أـمـاـ أـرـسـطـوـ فـيـذـكـرـ "ـأـنـ الـدـهـشـةـ هـيـ الـتـيـ دـفـعـتـ النـاسـ إـلـىـ الـفـلـسـفـ"ـ إـنـاـ نـاتـجـةـ عـنـ عـدـمـ اـقـتـنـاعـ الـإـنـسـانـ بـالـأـجـوبـةـ الـمـأـلـوـفـةـ وـالـمـتـداـولـةـ، أـوـ حـينـ الشـعـورـ بـالـجـهـلـ وـالـعـجـبـ وـالـاسـتـغـارـابـ الـذـيـ يـغـرـيـ نـفـوسـ الـبـشـرـ بـحـبـ الـاسـتـطـلـاعـ وـالـتـسـاؤـلـ الـدـائـمـ.

الـسـؤـالـ: اـشـهـرـتـ الـفـلـسـفـةـ أـوـلـ مـاـ اـشـهـرـتـ بـمـارـسـةـ السـؤـالـ، وـأشـهـرـ مـنـ مـارـسـ السـؤـالـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ هـوـ أـبـوـ الـفـلـسـفـةـ "ـسـقـراـطـ".ـ غـيرـ أـنـ السـؤـالـ الـفـلـسـفـيـ لـمـ يـتـخـذـ لـهـ شـكـلاـ وـاحـدـاـ فـقـطـ،ـ إـنـاـ غـيـرـ فـيـ بـيـنـ شـكـلـيـنـ إـثـيـنـ.

يـعـيـزـ طـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـيـنـ نـوـعـيـنـ مـنـ السـؤـالـ الـفـلـسـفـيـ،ـ فـهـنـاكـ السـؤـالـ الـفـلـسـفـيـ الـيـونـانـيـ الـقـدـيمـ.ـ وـالـسـؤـالـ الـأـوـرـيـ الـحـدـيـثـ.

فـأـمـاـ الـأـوـلـ،ـ فـقـدـ كـانـ عـبـارـةـ عـنـ عـمـلـيـةـ فـحـصـ وـتـحـيـصـ،ـ تـبـدـأـ بـسـؤـالـ عـامـ عـنـ مـفـهـومـ مـاـ يـلـيـهـ جـوابـ يـنـبـعـ عـنـهـ سـؤـالـ آـخـرـ وـهـكـذـا...ـ وـخـيرـ شـاهـدـ عـلـىـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ السـؤـالـ الـفـلـسـفـيـ الـيـونـانـيـ سـقـراـطـ،ـ الـتـيـ كـانـتـ تـنـتـهـيـ بـهـ أـسـئـلـتـهـ الـتـيـ تـطـولـ وـتـشـعـبـ إـلـىـ إـبـرـازـ التـنـاقـضـ بـيـنـ أـجـوبـةـ الـخـاـوـرـ.ـ إـنـ السـؤـالـ بـهـذـاـ الـمـعـنـيـ بـوـلـدـ الـأـفـكـارـ كـمـاـ كـانـ يـقـولـ سـقـراـطـ،ـ إـنـ خـطـابـ الـمـسـتـقـبـلـ الـذـيـ يـسـعـيـ نـحـوـ الـامـتـلـاءـ وـالـاـكـتـمـالـ.

أـمـاـ السـؤـالـ الثـانـيـ وـهـوـ السـؤـالـ الـفـلـسـفـيـ الـأـوـرـيـ الـحـدـيـثـ،ـ يـؤـكـدـ طـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ أـنـهـ سـؤـالـ الـنـقـدـ لـاـ فـحـصـ،ـ لـكـونـهـ يـمـيلـ نـحـوـ تـقـلـيـبـ الـقـضـاـيـاـ وـالـتـحـقـقـ مـنـ تـقـامـ صـدـقـهاـ اـعـتـمـادـاـ عـلـىـ الـعـقـلـ،ـ إـنـهـ سـؤـالـ يـوـجـبـ

النظر في المعرفة ويقصد الوقوف على حدود العقل، وخير مثال على هذا النقد فلسفة كانط حيث سمى قرنه بقرن النقد.

السؤال الفلسفـي عموماً يفترض مسبقاً شـكـاً في الجواب باعتباره معرفـةـ، وهو لا يمكن أن يطرح إلا على الشخص الذي يمتلك المعرفـةـ.

الشك : إن امتلاك الإنسان للمعرفـةـ لم يكن امتلاكاً يقينياً، بل سرعـانـ ما نـهـضـ بالإنسـانـ إلى فـحـصـ هذه المـعـارـفـ فـحـصـاـ نـقـديـاـ خـاصـةـ وـاـنـ هـنـاكـ أـحـكـامـ كـثـيرـةـ تـمـعـنـهـ منـ الـوـصـولـ إـلـىـ الـحـقـيقـةـ، وـمـنـ الـخـالـلـ التـخلـصـ مـنـهـاـ مـاـ لـمـ يـشـرـعـ هـذـاـ إـلـيـانـ فيـ الشـكـ فيـ جـمـيعـ الـأـشـيـاءـ الـتـيـ قدـ يـجـدـ فـيـهاـ أـدـنـ شـبـهـةـ مـنـ قـلـةـ الـيـقـيـنـ. وـمـارـسـةـ الشـكـ هوـ مـُـضـيـ نحوـ الـيـقـيـنـ لـأـنـهـ –ـ فـيـ أـسـاسـهــ فـحـصـ نـقـديـ صـادـقـ لـكـلـ مـعـرـفـةــ، فـلـيـسـتـ ثـمـ فـلـسـفـةـ حـقـيقـةـ دـوـنـ أـنـ يـكـونـ هـنـالـكـ شـكـ فيـ الـأـصـلــ. وـنـجـدـ دـيـكارـتـ مـنـ أـكـبـرـ الـفـلـاسـفـةـ وـأـشـهـرـهـمـ اـعـتـمـادـاـ عـلـىـ الشـكـ الـمـنهـجـيـ الـذـيـ يـسـتـبـعـ فـحـصـاـ نـقـديـاـ لـكـلـ الـمـعـارـفــ.

إن الخطاب الفلسفـيـ بـوـجهـ عـامـ يـتـشـكـلـ مـنـ آـلـيـاتـ فـكـرـيـةـ مـحدـدـةـ هـيـ الـأـصـلـ فيـ فـعـلـ التـفـلـسـفــ، غـيـرـ أنـ هـذـاـ فـعـلـ وـإـنـ كـانـ أـسـاسـهـ دـهـشـةـ، سـؤـالـ، شـكــ، فـإـنـ الـخـطـابـ الـفـلـسـفـيـ فيـ بـنـائـهـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـنـ أدـوـاتـ الـاشـتـغالــ يـكـنـ أـنـ نـطـلـقـ عـلـيـهـاـ إـسـمـ أدـوـاتـ مـنـهجـ الـخـطـابـ الـفـلـسـفـيــ وـهـيـ:

المـفـهـومـ وـالـإـشـكـالـ وـالـحـجـاجـ، وـالـتـحـلـيلـ وـالـتـرـكـيبـ ثـمـ السـقـيـةـ.

فـأـمـاـ المـفـهـومـ : يـعـتـبـرـ المـفـهـومـ نـشـاطـ أـسـاسـيـ فيـ التـفـكـيرـ الـفـلـسـفـيــ وـهـوـ مـدـخـلـ أـسـاسـيـ لـتـأـسـيسـ خـطـابـ مـعـرـفـيــ، يـهـدـفـ إـلـىـ اـسـتـنـاطـقـ الـكـلـمـةـ وـتـحـدـيـدـهـاـ بـمـاـ يـكـفـيـ مـنـ دـقـقـةـ حتىـ تـصـبـحـ مـجـالـاـ لـلـتـفـكـيرـ الـفـلـسـفـيــ وـأـدـأـةـ لـلـتـفـلـسـفــ، وـمـنـ أـبـرـزـ الـفـلـاسـفـةـ الـذـينـ تـأـسـسـتـ فـلـسـفـتـهـمـ عـلـىـ مـفـاهـيمـ، نـذـكـرـ سـقـراـطـ الـذـيـ كـانـ يـسـأـلـ مـحـاـوريـهـ عـنـ مـفـاهـيمـ لـمـ يـكـنـ يـرـمـ مـنـ تـحـدـيـدـهـاـ جـزـئـيـتـهـاـ وـإـنـاـ إـلـاحـاطـةـ وـالـشـمـولــ. وـلـيـسـ غـرـيـباـ أـنـ نـجـدـ الـدـرـسـ الـفـلـسـفـيـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ مـفـاهـيمـ يـتـطـلـبـ تـحـدـيـدـ دـلـالـتـهـاـ وـإـلـاحـاطـةـ بـهـاـ فيـ كـلـيـتـهـاـ وـلـيـسـ فـيـ جـزـئـيـتـهـاـ كـمـفـاهـيمـ الـلـغـةـ، الـعـقـلـ، الـحـقـيقـةـ، الـحـقـ، الـشـغـلـ...

الـإـشـكـالـ : يـعـتـبـرـ رـكـنـ أـسـاسـيـ فـيـ التـفـكـيرـ الـفـلـسـفـيــ، وـهـوـ يـتـكـونـ مـنـ طـرـفـيـنـ مـنـ السـؤـالـ أوـ أـكـثـرــ يـمـتـازـانـ بـعـلـاقـةـ التـقـابـلـ وـالتـضـادـ وـيـشـتـرـطـ فـيـهـمـاـ الـانـسـجـامـ أـيـ؛ـ أـنـ يـكـوـنـاـ مـنـ نـفـسـ الـطـبـيـعـةـ وـالـجـنـسـ أوــ الـمـوـضـعـ.

الإشكال إذن قضية تسوائية تنطلق مما هو جوهري في الموضوع، هدفه إحداث التقابل والإخراج بين الطرفين "الموقفين" والهدف من هذا التقابل والتناقض هو معالجة مختلف الإجابات الممكنة. مثلاً في مفهوم السعادة يمكن أن نحدث التقابل في طرح إشكالي كما هو واضح من خلال هذا الإشكال:

هل السعادة إرضاء للبدن أم للعقل أم للقلب؟

الإشكال هنا ينصب داخل نفس الطبيعة، وهو البحث عن مصدر السعادة، ويمتاز بالتقابل بين أطراف أسئلته المكونة له، والتي تتفرع إلى ثلاثة أسئلة نفصل بينها بـ "أم". وتروم إحداث التقابل والتناقض بين الأطراف التي يتشكل منها هذا الإشكال، وذلك بغية معالجة مختلف الإجابات الممكنة، وبهذا نخلص أن الإشكال يهدف هو الآخر الإحاطة بالكل وليس بالجزء.

الحجاج: فكثيراً ما يقال أن حقل الفلسفة هو حقل توليد المشكلات وإثارة الأسئلة، وهو أيضاً حقل تتواجد فيه الأجوبة بنفس قدر تواجد الأسئلة والإشكالات، غير أن طبيعة الجواب في الفلسفة مبرهن عليه، يقوم على الحجاج والمحاجة. وهو يتميّز عن البرهان، لأن هذا الأخير يشكل خاصية للعلم، في حين يشترط الحجاج استهداف إقناع المتحاور أو المتكلمي وإحداث أثر لديه، وبالرغم من هذا التمييز فإنّ مكانية حضورهما معاً في الخطاب الفلسفـي واردة مع غلبة الجانب الحجاجـي.

إن الحاج تقنية يستعملها الفيلسوف من أجل حمل/ دفع أكبر عدد من ممكّن من المتكلمين على قبول خطابه والاقتناع بآرائه، إنه عملية إقناعية تأثيرية بطريقة عقلية. من جهة، ومن جهة أخرى، الحاج تجارة عملية تستعمل لدحض وتفنيد أطروحة الخصوم وذلك بإظهار ضعفها أو عدم صلاحيتها... ومن آليات الحاج الأشكال التالية:

حجاج برهانية: حجة البرهان المنطقي، حجة البرهان الاستدلالي، حجة البرهان بالخلاف.

حجاج بلاغية: توظيف التشبيه، المجاز، الاستعارة، المماثلة...

حجّة توظيف المثال والأساطير والقصص...، والحجاج باللجوء إلى السلطة الموثوقة إلخ...

التحليل والتركيب: عملية التحليل في الفلسفة غايتها، تفكيك الكل إلى عناصره المكونة الواحد تلو الآخر وفق نظام وسلسل محكم، كما يؤكّد ذلك الأستاذ "مصطفى بلحمر"، وتسعى عملية التحليل إلى شرح وتوضيح وإبراز محتوى كل عنصر من تلك العناصر.

أما التركيب فهو إعادة تشكيل الكل انطلاقاً من العناصر التي تم تحليلها بأسلوب خاص يسمح بتبيين أفضل للعناصر ومركزاً على ما هو جوهرى في الكل. أي تجميع جديد للعناصر التي تم تفكيرها وتحليلها.

وقد ألح ديكارت على عمليتي التحليل والتركيب ضمن منهج التفليسف الذي اقترنه وبالتالي فهما خطوتين ضروريتين لأنهما أساس الشرح والتوضيح والفهم والبرهنة.

النسقية: يتتألف النسق من عدد من النظريات الفلسفية، تحتوي كل نظرية منها على موقف معين من مشكلة معينة، بحيث تكون كل نظريات النسق مترابطة ومتماضكة البناء. إنه – أي النسق – الإطار الفكري الكامل، الذي يربط أفكار الفيلسوف بعضها بعض في وحدة عضوية دون أن يحتويها تناقض أو تقاطع، بل شرط النسق الفلسفى تحقيق الوحدة والانسجام بين عناصره التي يتكون منها هذا النسق...